بعض الامثال والاقوال

قديمًا وحديثًا

(٢)

عطفًا على ما ورد تحت البند العاشر من المقالة السابقة أقول اني عثرت على رواية اخرى للبيت الذي نسبهُ الاصمعي الى كعب بن زهير وهو

اقول شبيهات بما قال عالمٌ بهنَّ ومن اشبهْ اباهُ فما ظلَمْ

والرواية التي عثرت عليها هي

واني الذي لم يخزني في حياتهِ قديمًا ومن يشبهْ اباهُ فما ظلَمْ

ففي وضع « يشبه » مكان « اشبه » الساكنة الآخر تخلُّص من التعليل السخيف الذي عللوا بهِ تسكين الهاء وهو قولهم « جزم الهاء من اشبه لكثرة الحركات » ولا حركات كما فلناه. وقد نقل اليَّ عن لسان بعض العارفين ان البيت

بأبٍ اقتدى عديٌّ في الكرمْ ومن يشابه أبهُ فما ظلمْ

هو لرؤبة ابن العجاج الراجز المشهور فان صحَّ ذلك فالمثل سابق لهذا البيت لان رؤبة من رجال القرن الثاني للهجرة والمثل وارد في نظم كعب بن زهير وهو متقدم على رؤبة كما هو معروف

(١٤) مكرهٌ اخوك لا بطلٌ . ورد هذا المثل في كتاب الشاعر برفع اخوك على انها مبتدأ مؤخرٌ . والمتداول على السن كتاب العصر انها اخاك لا اخوك . وجاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ قولهُ في الكلام على البلاغة « فمن زعم ان البلاغة ان يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة والكزة والخطأ والصواب والاغراق والابانة والمحون والمعرب كلهُ سواء وكلهُ بيانًا . واصحاب هذه اللغة وهذا البيان لا يفقهون قول القائل منَّا « مكرهٌ اخاك لا بطلٌ » و « اذا عزَّ اخاك فهُنْ » . ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم « ذهبت الى ابو زيد » و « رأيت ابي عمرو » ومتى وجد النحويون اعرابيًّا يفهم هذا واشباههُ بهرجوهُ (اي شهروا بهِ) ولم يسمعوا منهُ لان ذلك يدلُّ على طول اقامتهِ في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان »

فكلام الجاحظ يدلُّ على ان هذا المثل كان معروفاً في عصره وهو سابق لعصر المفضل بقليل وانهم كانوا يلفظون اخاك بالالف وينكرونهُ لانهُ خطأ كما كانوا يقولون « ذهبت الى ابو زيد » وكما نقولهُ نحن الآن ويفهم من قولهِ « ومتى وجد النحويون » الخ ان الاعراب لم يكونوا يفهمون الكلام الملحون وهو يؤيد ما نقلهُ عنهم الاصمعي وغيرهُ ممن عاش دهراً طويلاً بينهم . ومدلول هذا القول ان الإعراب كان عند الأعراب جزءاً من الكلام لا يتصور فصلهُ عنهُ فاذا وقع اللحن في الإعراب لم يدركوا المعنى مع دلالة القرينة عليهِ اما في عصرنا فلا يجهل معنى قول القائل متى « رأيت ابي عمرو » الاَّ جاهل او متجاهل

على ان عدم فهم الاعرابي للكلام الملحون ربما لم يكن غريباً لانهُ اعتاد سماع الكلام معرباً منذ ولادتهِ والنطق بهِ منذ اوان النطق . وانما الغريب تجاهل النحويين الى حدّ انهم يشهرون باعرابي يفهم كلاماً ملحوناً . فهم ملكيون اكثر من الملك كما يقول المثل الفرنسوي . وكنا نظن هذا التجاهل خلقاً فيهم حديثاً فاذا هو خلق قديم

(١٥) اذا عزّ اخوك فهن . كذا ورد في الناخر وفي مواضع اخرى . ويرى من النبذة المتقدمة ان الجاحظ رواهُ بلفظ اخاك مكان اخوك . وربما كان بين العرب قوم ينكرون الاسماء الخمسة واعرابها بالحروف ويلتزمون الالف فيها على كل حال مهما اختلفت اوجه الكلام والاعراب . ولكني لم اجد نصّاً صريحاً على وجود هذه اللغة . ولو وجدت لذكرت كما ذكرت اللغة التي تعرب بها الاسماء الخمسة بالحركات

(١٦) تسمعُ بالمعيدي خير من ان تراهُ . وفي رواية اخرى تسمعَ على نصب الفعل المضارع بان المقدرة فيكون التأويل مياعك بالمعيدي ..... وفي رواية غيرها « تسمعُ بالمعيدي لا ان تراهُ » . وليس لهذا المثل ما يقابلهُ بلفظهِ بين اقوال العامة بل ان عندهم اقوالاً كثيرة بمعناهُ يخرج ايرادها عن غرض هذه المقالة منها قولهم « الشوف مش مثل السمع »

(١٧) الدالُّ على الخير كفاعلهِ . قالهُ سعد بن خشرم لرجل اسود اعمى في وقتين مختلفين بينهما فترة قصيرة فعدَّ قولها من توارد الخواطر . ولهُ حكاية طويلة لا محل لذكرها وفي اقوال بعض العامة نادي الخير كفاعلهِ

(١٨) انصر اخاك ظالماً او مظلوماً . أذكر هذا المثل هنا مع خروجهِ عن قصد هذه المقالة للردّ على قول بعض من قال ان معناهُ وجوب مساعدة المسلم لاخيهِ المسلم سواء كان محقّاً او مبطلاً . وليس هذا معناهُ كما يرى مما يلي :

قال الفاخر ان اول من قال المثل جندب بن العنبر التميمي جلس وسعد بن ضباة وهو تميمي ايضاً يشربان فتعاضبا في القول ورمى جندب سعداً بالجبن وتفرقا على ذلك . وكان سعد قد قال لجندب لتأسرنك ظعينة (اي امرأة راكبة بعير) فلا يفيئك غيري فكان كذلك واستغاث جندب بسعد ولم يكن يعرفهُ فقال سعد ان الجبان لا يفيئ فقال جندب

يا ايها المرء الكريم المشكوم انصر اخاك ظالماً او مظلوم

فاقبل اليهِ فاطلقهُ . قال صاحب الفاخر « ويروى عن النبيّ (صلعم) انهُ قال انصر اخاك ظالماً او مظلوماً . قيل يا رسول الله هذا ننصرهُ مظلوماً فكيف ننصرهُ ظالماً . فقال تردّهُ عن الظلم » . وفي هذا قطع لالسنة القائلين ان نصرة الظالم هي معاونتهُ على ظلمهِ وجندب وسعد المذكوران آنفاً من اهل اواخر الجاهلية

(١٩) إياك اعني واسمعي يا جارهُ . اول من قال ذلك سهل الفزاري فانهُ نزل في بعض اسفارهِ على حارثة بن لام وكان غائباً فأكرمتهُ اختهُ وكانت اجمل اهل دهرها واكملهم وكانت عقيلة قومها وسيدة نسائها فوقع في نفسهِ منها شيءٌ فانشد ذات يوم على مسمع منها

يا أُخت خير البدو والحضارهْ كيف ترين في فتى فزارهْ
اصبح يهوى حرةً معطارهْ إياك اعني واسمعي يا جارهْ

فلما سمعت قولهُ قالت ما هذا بقول ذي عقل اريب ولا رأي مصيب ولا الف نجيب فاقم ما اقمت مكرماً ثم ارتحل اذا شئت مسلماً . فاستحيا وقال ما اردت منكراً واسوّتاهُ قالت صدقت وكأنها استحيت من تسرّعها الى تهمتهِ فارتحل . وفيها هو عائد عاج بالمنزل وكان فيهِ اخوها فاطلعت اليهِ نفسها وكان جميلاً فارسلت اليهِ ان اخطبني ان كانت لك فيّ يوماً من الدهر حاجة فاني سريعة الى ذلك فخطبها وتزوجها وسار بها الى قومهِ

وفي الشام يقولون « بقول لك يا كنه تسمعي يا جاره » وهو لسان حال الحماة تقول اكلمك يا كنتي تسمعي يا جارتي اي ان الحماة — وعداوتها للكنة وعداوة الكنة لها قديمتان مشهورتان — تخاطب كنتها بصوت عالٍ ارادة التشهير بها اذ لو كانت تريد نصحها لكلمتها بصوت منخفض . وعندي ان المثل يكون اوجه لو كان « بقول لك يا جاره تسمعي يا كنه » . فان الحماة تكون عادة اضعف مراساً من كنتها فلا تستطيع مقابلة عداءها — وما يصحبهُ من الشتم والصخب والنكاية — بمثلهِ فتلجأ الى جارتها وترفع عقيرتها امامها بقوارص الكلام والفاظ السباب توجهها اليها ظاهراً وهي انما تعني كنتها باطناً لعلها بذلك تتخلّص من نقمتها

(٢١) اقتلوني ومالكاً . اول من قال ذلك عبد الله بن الزبير . وذلك انهُ عانق الاشتر النخعي فسقطا الى الارض واسم الاشتر مالك فنادى عبد الله بن الزبير اقتلوني ومالكاً فضرب بهِ المثل لكلّ من اراد بصاحبهِ مكروهاً وان نالهُ منهُ ضرر . ومن ذلك البيت المشهور

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكا معي

فالعجز تأكيد للصدر من غير زيادة عليهِ في المعنى

وفي الشام يقولون بهذا المعنى « عليّ وعلى اعدائك يارب » وهي عبارة ينسبونها الى شمشون والحقيقة انها تلخّص حكاية موتهِ مع الفلسطينيين اعدائهِ . فانهم بعد ان اعروا دليلة خليلتهُ بحلق شعرهِ وكان سرّ قوتهِ فقأوا عينيهِ وجاؤوا بهِ الى هيكل اوثانهم ليلعب امامهم واوقفوهُ بين أعمدة الهيكل . وكان شَعْرهُ قد نبت وعادت اليهِ قوتهُ فتبض على عمودي الهيكل المتوسطين واستند اليهما الواحد بيمينهِ والآخر بيسارهِ ودعا الربّ فقال « يا سيدي الرب اذكرني وشددني هذه المرة فانتقم نقمة واحدة عن عينيّ من الفلسطينيين » . ثم انحنى قائلاً « لتمت نفسي مع الفلسطينيين » فكان الذين اماتهم في موتهِ اكثر من الذين اماتهم في حياتهِ ومات هو معهم

(٢٠) لا تعلّم اليتيم البكا . اول من قالهُ زهير الكلبيّ فان ملقمة بن كنانة اغار على بطن من قبيلتهِ فقتل وأسر منهم وافلت من الفلّ فاقبلت الجواري على زهير يسألنهُ عن آبائهنّ فبشّر منهنّ بنجاتهم ونعى على واحدة اباها فبكت فقال رجل ما اسوأ بكاها فقال زهير لا تعلّم اليتيم البكا

وفي الشام يقولون « يتعلّم الارامل النواح ؟ » استفهاماً انكارياً . يريدون ان الارامل يُجدن النواح فلا حاجة بهنّ الى من يعلمهنّ اياهُ

(٢٢) يا حبذا الامارة ولو على الحجارة . قال ابو عبيدة اول ما قيل ذلك للحجّاج الثقفي وكان زياد ولاّهُ بناء دار الامارة بالبصرة والمسجد الجامع بها فظهرت لهُ اموال وحال لم تكن فقيل المثل المتقدم . وقال مصعب الزبيري انما قال ذلك عبدالله بن خالد بن اسيد وقال لابنهِ ابنِ لي داراً بمكة واتخذ فيها منزلاً لنفسك ففعل فدخل عبدالله الدار فاذا فيها منزل قد اجادهُ وحسنهُ بالحجارة المنقوشة فقال لمن هذا المنزل فقال هذا المنزل الذي اعطيتني فقال عبدالله المثل

ويقال في الشام « اماره عالفارغ » ويقابلهُ بمعناهُ قولهم « يحب الرفعه ولو على الخازوق »

(٢٣) بكى الصبيُّ حتى فحَم . قال ابن الاعرابي معناهُ حتى انقطع بكاؤهُ من كثرة ما بكى . ويقال معنى فحم اكمَدَّ واسودَّ وجههُ من كثرة البكاء

وفي الشام يقولون بكى حتى فحِم بتشديد الحاء وفحِمت من العطش (او تفحّمت في بعض البلاد بابدال الفاء ثاء) وفي القاموس فحَم شرب في فحمة الليل والفحمة اول الليل او اشدُّهُ سواداً خاصٌّ بالصيف وفحمةُ سوّدهُ بالفحم

(٢٤) خالف تُذكر . اول من قالهُ الحطيئة وكان ورد الكوفة فلقي رجلاً فقال لهُ دلني على فتى المصْر نائلاً (اي اكثركم عطاء) فقال عليك بعُتيبة العجْلي فمضى نحو دارهِ فصادفهُ فقال لهُ انت عُتيبة قال لا قال افأنت عتّاب . قال لا قال اسمك لشبيهٌ بذلك . قال انا عليبة فمن انت . قال انا جرول . قال ومن جرول قال ابو مُليكة قال والله ما ازددتُ الاَّ جهلاً . قال انا الحطيئة . قال مرحباً بك . قال الحطيئة فحدثني عن اشعر الناس من هو . قال انت . قال الحطيئة خالف تذكر . اشعر مني الذي يقول « ومن يجعل المعروف من دون عرضهِ » (الخ يريد زهيراً) قال صدقت فما حاجتك . فطلب الحطيئة ثيابهُ وكانت من خزّ وميرة اهلهِ وكسوتهم فاعطاهُ جميع ما طلب

وفي الشام يقولون « خالف تعرَف »

(٢٥) هو آية . الآية العلامة التي تدلُّ على الشيء فيراد انهُ علامةٌ فيما يوصف بهِ يستدلُّ بها عليهِ . والآية ايضاً المثل فيراد بهِ انهُ يتمثل بهِ في الشيء الذي ينسب اليهِ من خير او شرّ

ويقول بعض عامة الشاميين في خطاب المتعجب منهُ « أمّا انك آية » يريدون انك انك غريب الاطوار نادر الاخلاق كالآية اي الاعجوبة

(٢٦) هذا الشيء فتنة من الفتن . الفتنة في هذا الموضع النعمة واللذة . ومنهُ الآية « انما اموالكم واولادكم فتنة » . ويكون ايضاً معنى الفتنة المحنة والبلوى اي تمتحنون بذلك ليعلم شكركم

وتستعمل الفتنة في الشام لوصف الجمال البارع فيقال هذه الفتاة فتنة اي تفتن الالباب بجمالها . ولعل هذا هو مراد الشاعر الحديث من قولهِ

خلقتَ الجمالَ لنا فتنة وقلت لنا يا عبادي اقنون
وانت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لا يعشقون

(٢٧) ويلٌ للشجي من الخلي · اول من قال ذلك على ما ذكر بعضهم اكثم بن صيفي التميمي وكان من حديث ذلك انهُ لما ظهر النبي بمكة ودعا الى الاسلام بعث اكثم ابنهُ جُبَيْشاً فاتاهُ يخبره فجمع بني تميم وخطب فيهم خطبة وجيزة كلها نصح وارشاد ثم قال ان ابني شافه هذا الرجل (يريد النبي) مشافهة واتاني يخبره وكتابهِ يأمرُ فيهِ بالمعروف وينهى عن المنكر الى آخر خطبة طويلة دعاهم فيها الى الاسلام طائعين قبل ان يأتوا كارهين · فقال احدهم قد حَرَّف شيخكم فقال اكثم المثل · وقال غيرهُ غير ذلك

وفي الشام يقال « ويلٌ للحزانى من النائحات او من المتفرجات » اشارة الى النادبات اللواتي يُستأجرن للبكاء او الى اللواتي يشهدن المآتم للفرجة لا للمؤاساة · ومن هذا قول الشاعر « وليس كمن بكى من قد تباكى »

(٢٨) ليس الخبر كالمعاينة · روي ان النبي اول من قال ذلك

ويقال في مصر والشام « وليس الخبر كالعيان » واكثر ما يرى هذا القول هنا في الاعلانات التي توزع على القهوات كما هو معروف

(٢٩) صمت الفاً ونطق خلقاً · معنى قولهم صمت الفاً اي صمت في موضع الف كلمة كان ينبغي ان يتكلم بها ويقال الف يوم · والخلق الردي من القول

والمثل المشهور بين العامة في هذا الزمان « سكت شهراً ونطق كفراً »

(٣٠) كل شاة برجلها معلقة · اي كلُّ احد مأخوذ بجريرتهِ لا بجريرة غيرهِ كما ان الشاة لا تعلق برجل غيرها · يقال ان اول من قالهُ وكيع بن زياد وكان ولي امر البيت بعد جُرْهم فلما حضرتهُ الوفاة جمع إياداً فقال لهم اسمعوا وصيتي الكلام كلمتان والامر بعد البيان من رشد فاتبعوهُ ومن غوى فارفضوهُ وكلُّ شاة معلقة برجلها فارسلها مثلاً

ويقول عامة الشام « كل عنزة معلقة بكرعوبها » اي عرقوبها وهو بمعنى ما قبلهُ

(٣١) ما عدا مما بدا · اي ما عداك عني مما بدا لك مني ومعنى عداك صرفك وبدا ظهر · واول من قال ذلك علي بن ابي طالب لما قدم البصرة قال لعبد الله بن العباس صِرْ الى الزبير ولا تأتِ طلحة فقل يقرأ عليك السلام ويقول اعرفتني بالحجاز وانكرتني بالعراق ما عدا مما بدا · قل ابلغهُ قال ابلغهُ سلامي وقل لهُ عهد خليفة ودمُ خليفة واجتماع

ثلثة وانفراد واحد وام مبرورة ومشاورة العشيرة . هذه هي رواية المفضل ورواية الجاحظ تختلف بعض الشيء عنها وهاكها :

« عبدالله بن مصعب قال ارسل عليّ بن ابي طالب عبد الله بن عباس لما قدم البصرة فقال ائت الزبير ولا تأت طلحة فان الزبير ألين وانك تجد طلحة كالثور عاقصاً قرنهُ يركب الصعوبة و يقول هي امهل . فاقرأ عليهِ السلام وقل لهُ يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وانكرتني بالعراق فما عدا مما بدالك . قال فاتيت الزبير فقال مرحباً يا ابن لبابة زائراً جئت ام سفيراً قلت كل ذلك وابلغتهُ ما قال عليّ . فقال الزبير ابلغهُ السلام وقل بيننا و بينك عهد خليفة ودم خليفة واجتماع ثلاثة وانفراد واحد وام مبرورة ومشاورة العشيرة ونشر المصاحف فحلّ ما احلّت وحرم ما حرمت فلما كان من الغد حرّش بين الناس غوغاؤهم فقال الزبير ما كنت ارى ان مثل ما جئنا لهُ يكون فيهِ قتال »

وفي الشام يقولون « شوعدا ما بدا » بالمعنى نفسهِ اي عند ارادة المتاب . ولم اسمع هذا المثل الاَّ في بلاد الشيعة (المتاولة) إما سنهم واما من النصارى النازلين بين ظهرانيهم . والذي يعلم تعلق الشيعة بعليّ وحرصهم على كلّ ما يعزى اليهِ لا يتعجب من تداول السنتهم لقول من اقوالهِ قد لا تجد لهُ ذكراً الاَّ في كتاب او كتابين

(٣٢) ما اشبه الليلة بالبارحة . يقال ذلك لكلّ اثنين اتفقا على خلق . واول من قالهُ طرفة بن العبد يذمّ اخاهُ :

كلّ خليلٍ كنت خالتهُ لا يتركُ الله لهُ واضحه
كلّهمُ اروغُ من ثعلبٍ ما اشبه الليلة بالبارحه

وفي الشام يقولون « قالت العنزه وهي سارحه هالليله متل متل البارحة » ويستعملونهُ في معنى يختلف عن معنى المثل المذكور فيضربونهُ حيث يريدون مقابلة حاضر مخوس بماضٍ مسعود

(٣٣) قولهم في الدعاء على الانسان باليتها كانت القاضية اي الموتة التي لا حياة معها

وفي الشام يدعون مثل هذا الدعاء نجيب شاهين